الانسان ابن المشقة (١)

موضوع كلامي « الانسان ابن المشقة » والمشقة في اللغة الصعوبة والمحنة والجهد والعناء ويراد بها هنا التعب الذي يتعبُ الانسانُ في عملهِ مهما كان نوع التعب وجنس العمل . اي ان مولود المرأة لن يصير انساناً حقيقياً تام المروءة كامل الرجولية الاَّ اذا ربا في مهد الصعاب وكان من خريجي مدرسة المشاق والاتعاب وقد اوضحت ذلك في هذين البيتين : —

قل لمن يطلب العلاء بهونٍ وتراخ لقد ضللت الشقة
لن ينالَ الفتى ثلامة ظفرٍ منهُ الا على طريق المشقة

وهذا يوافق قول المتنبي : —

ذريني انل ما لا ينال من العلى فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل
تريدين ادراك المعالي رخيصة ولا بدَّ دون الشهد من إبر النحل

ولكن مما اتفق الناس عليهِ ولم يختلفوا فيهِ على رغم تباين طبقاتهم وتغاير احوالهم الشكوى من مكاره الحياة ومتاعبها مصداقاً لقول بعضهم « كل من تلقاهُ يشكو دهرهُ » وقولِ الآخر « ليس يرضي المرء حال واحد »

وقل من تلقاهُ من الرجال والنساء لا يقول عن نفسهِ انهُ أليف المشقة والعناء وحليف البؤس والشقاء وذلك لان الانسان في الغالب اما ان يكون غير عامل ما يريد عملهُ في هذه الحياة او انهُ يلقى في ما يريد عملهُ كثيراً من المشقات والتكاليف وفي كلتا الحالتين يتبرم ويتذمر ويردد قول احد اصحاب ايوب « الانسان مولود للمشقة »

فاذا تتبع موضوع كلامي « الانسان ابن المشقة » حملهُ على خلاف مرادي وفسرهُ بان الانسان مولود ليدأب ويتعب ويتألم ويتعذب . واذا قلت لهُ مرادي ان المشقة تعد الرجال للاقدام على اعظم المساعي واعمد الاعمال وتولد فيهم احسن الصفات وافضل الخلال وتمكنهم من ادراك الاماني وتحقيق الآمال انقض رأسهُ مستهزئاً وعد كلامي من اكبر ضروب المحال

(١) من خطبة لحضرة اسعد افندي داغر تلاها في ١١ فبراير الماضي في الاحتفال السنوي لجمعية الاتحاد والاتحاد السورية العثمانية بمطحا

ادعياء المشقة

فيقول هذا : — ليت شعري لا ادري اي نفع ان اجتنيهُ من مشقتي . اهذا الحمل الثقيل الذي يهظني وكاد يقصم ظهري ويقصر عمري . ام هذه الكلفة الصعبة التي عانيت فيها عرق التربة

ويقول هذه : — ها انا اعنى كل يوم بتربية الاولاد الصغار واعداد الطعام وتنظيف البيت وتدبير المنزل وغير ذلك من الشؤون فاقاسي من هذه المشاق ما لا يطاق ولا ارى لي في مقاساتها اقل نفع على الاطلاق

ويقول ذاك : — اني امرؤ مشغوف بالطبيعة ومفتون بجمالها ولي ميل شديد الى مطالعة الكتب المهذبة والصحف المفيدة وفيَّ شوق عظيم الى الحركة والرياضة لاني بعد فتى غض الشباب لدن الاهاب لكن اشغالي تزعجني وتزهقني حتى تكاد تزهقني

ويقول ذلك : — « اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً وقد بلغت من الكبر عتياً » فاصبو من صميم فؤادي الى اعتزال المشاغل الصعاب والاستراحة من المشقات والاتعاب لكن العمل شديد وطأتهُ عليَّ فعالي عليهِ طاقة وليس لي الى الراحة من باب

ويقول تلك : — لو خيرت لاخترت ولكنني اتجرع غصص هذه المرارة مضطرة غير مختارة وقد اكرهت على تحمل ما انا فيهِ بقضاء لا يرد او باغراء لم يكن لي فيهِ يد . او بواجبات منزلية او بجماقة والدية او بزواج سلكت على قدم الغرور سبيلهُ وضفرت بيد الطيش اكليلهُ وبحادث آخر كان مخبوءاً لي في خزانة الاقدار وقد فاجأني على غير توقع ولا انتظار وهو يسومني الآن عذاباً صعداً ويوسعني غمّاً ونكداً وعما قليل يوردني مورد الردى

هذا في الغالب لسان حال كثيرين من الرجال والنساء وهو ناشئ عن اساءة فهم ماهية الحياة او عن خطاء كبير في تصور سعادتها . فالذين ظنوا الحياة عبارة عن لهو ولعب واكل وشرب عدوا العمل علة زوالها ومدعاة انصرام حبالها والذين زعموا ان السعادة هي التي جعلوا الراحة والبطالة من اكبر ملاذاتها وكان التعب عندهم عنوان الفاقة والفقر ومن لوازم الشدة والعسر . فاذا اضطرتهم الاحوال ان يباشروا اصغر عمل فيهِ اقل تعب ضجوا بالتذمر والشكوى واوهموا الناس انهُ قضي عليهم بجشم مشقات وكلفت تؤدي بهم الى التلف

على ان الواقع لا يتنبأ فلال هذه الخزعبلات . وقد ثبت بعد تكرار الملاحظة والاستقراء وطول التجربة والاختبار ان السعي قوام الحياة وزينتها وعمل الواجب ملاك السعادة الحقيقية ومدارها وان المشقة امتن اساس بنى عليهِ عظماء الارض اعمالهم التي امتازوا

بها ونالوا من اجلها ذكراً خالداً وشهرة مستطيرة . اما من يتوقع الحصول على السعادة وهو مستلق على ظهره في سريره ينظر اليها من دخان سيكارته او غليونه المعتقد زرداً في جو بيته فهو ابله البلداء واغبي الاغبياء بل اخيب آمل تحت السماء

الجمعية بنت المشقة

وفي كل يوم نرى كثيرين من امثال هؤلاء الشاكين المتذمرين ادعياء المشقة الذين ليسوا بالحقيقة سوى ابناء البطالة واولاد الكسل والتراخي . والمشقة بريئة منهم وبعيدة عنهم . اما ابناء المشقة الحقيقيون فمن اكبر مميزاتهم انهم لا يشكون ولا يتذمرون . ومن كان يجهلهم ويود معرفتهم فليطلبهم بين رجال الفلسفة والعلم والاختراع والاكتشاف والفتح والتدوين وغيرهم من العظماء الذين خدموا التمدن والعمران وسهلوا تحصيل المعايش على بني الانسان . هؤلاء هم ابناء المشقة واولاد العناء . ومالي اذهب بكم بعيداً في الاستشهاد والتمثيل واسامي هذه الجمعية في مدينة طنطا الزاهرة . فهي من حيث سنها طفلة صغيرة لم تمط بعد عنها التمائم ولم تزل في غرة الحول السادس . واما من حيث نموها وتقدمها ونشاطها وعزيمتها فكأني بها في ريعان الصبا وشرخ الشباب . فكيف تهيأ لها ذلك والجمعيات الاخرى التي على شاكلتها لا تزال لسوء الحظ تنعقد وتفصل وتنشأ ثم تضمحل ؟ سل اعضاءها الكرام ينبئوك — وما ينبئك مثل خبير — بالمشقة التي عانوها في الماضي ووطنوا نفوسهم الشريفة على معاناتها في المستقبل حتى يبلغوا بالجمعية ما ارادوا لها من رسوخ القواعد وثبوت الاركان ويجعلوها كالروضة الغناء فيها من كل فاكهة زوجان . ويدرك السوريون كافة قيمة التكافل والتضامن وفائدة التكاتف والتعاون ويعلموا ان الاحسان اجمد عمل يشرف المرء واغلى حلية تزين الانسان

اذاً هذه الجمعية العزيزة وليدة الوعوث وربيبة الصعاب وكم لها من اللدات والاتراب بين معاشر السوريين ابناء المشقات والاتعاب المتفرقين تحت كل كوكب في ديار الهجرة والاغتراب

المشقة معمل الرجال

فالمشقة منشأ مبادىء الحياة الاولية ومصدر اركان التهذيب الانساني ومن لم تهذبه المشقة في صغره لم ينجح في شيء مما يتعاطاه في كبره . والولد الذي يحمل على الايدي ينشأ مقعداً لا يستطيع المشي ابداً

كنا نعلم ان المصنوعات الخزف والخشب والحديد وغيرها من المعادن مصانع والمنسوجات

الحرير والصوف والكتان والقطن معامل فلنعلم ايضاً ان للرجال في كل زمان ومكان مصنعاً او معملاً وهو المشقة . ولهذا المعمل آلات كثيرة تدار لا بالماء والهواء ولا بالبخار والكهرباء بل بقوة الارادة والعزم . واهم هذه الآلات :

اولاً السعي او الاجتهاد . وهو اول الدروس الادبية التي يتعلمها الاولاد في المدارس فعليه تدور نصائح الاساتذة ومعظم انشاءات التلامذة وهو من القواعد التي يكثر كلامنا عليها ويقل عملنا بموجبها . والناس في الدنيا فريقان احدهما يسعى لغرض والآخر لا سعي لهُ ولا غرض . ومن يبحث عن السعادة يجدها في الغالب مخيمة فوق الفريق الاول تظللهم بقوادمها وخوافيها وترفرف عليهم بذيولها وحواشيها

ان السعادة في الدنيا مقدرة لكل ساعٍ فاسعى الناس اسعدهم
اما الشقاء فمثبوت لقاعدٍ على اهل القعود واشقى القوم اقعدهم

والسعي في هذه الحياة كفتار الظهر في الجسد ومن لا سعي لهُ فهو كانسان بلا فقار وما اكثر من هم كذلك في بلادنا . ولعل هذا النقص اكبر آفات تقدمنا واعظم اسباب تأخرنا

وليعلم شبابنا يقيناً ان جو المستقبل يظل امامهم قاتماً مكفهراً حتى يقلعوا عن البطالة والكسل ويترعوا الى السعي والعمل . وسيبقى كثيرون منهم يشكون فراغ جيوبهم من المال وفلوبهم من السعادة واجسادهم من الصحة ما دامت القهوات والحانات والمراقص والمقاهي وغيرها من محال البطالة والخلاعة مزدحمة لاقدامهم في النهار واكثر ساعات الليل . وليعلموا ايضاً ان الفراغ من اكبر مفسدات الاخلاق ومولدات الضعف الجسدي والخمول العقلي والانحطاط الادبي وما اصدق القول : —

« ان الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء احيه مفسده »

لقي مرة السير هوراس فير احد اصحابه وسأله قائلاً « ما سبب موت اخيك؟ » فاجابهُ « انقطاعهُ عن العمل » فقال ذاك « حقاً ان هذا سبب كاف لاماتة اي انسان كان »

وكثيراً ما نرى فريقاً من الشبان نشأوا معاً في مدرسة واحدة وتلقوا علوماً واحدة وكانوا كلهم محل الحذق والذكاء ومظهر النجابة والبراعة ثم شطروا بعد ذلك شطرين . فالذين حسروا منهم عن ساعد الجد والاجتهاد نراهم الآن صاعدين في سلم التقدم والارتقاء . والذين آثروا ان يعيشوا في ظلال اللهو والبطالة ظانوا لا يعلم احد من هم وما من معنى لوجودهم على الارض

قال سليمان الحكيم : — « ارأيت رجلاً مجتهداً في عمله ؟ امام الملوك يقف » وقال في

جامعته «الكسلان يأكل لحمهُ وهو طاوٍ يديهِ» وقال احد بلغاء العرب «الكسل عنوان النحوس · ولباس ذوي البوس · ومفتاح المتربة · ولقاح المتعبة · وشيمة العجزة الجهلة · وشنشنة الوكلة الدكلة · وما اشتار العسل · من اختار الكسل · ولا ملأ الراحة · من استوطأ الراحة · والخور صنو الكسل · وسبب الفشل · ومبطأة العمل · ومخيبة الامل»

ثانياً الشجاعة — وهي ولا ازيدكم علماً من فرائد عقد الفضائل ويراد بها اقتدار القلب على عمل الواجب · فلا نصح هذا لان كثيرين يخطئون فهم الشجاعة فيعدون الطائش المتهور المقتحم ما لا داعي اليهِ باسلاً شجاعاً · ويظن بعضهم ان الشجاعة تقوم بعدم الخوف · وهذا الظن خطأ لا صحة لهُ ومن لا يخاف مطلقاً فهو مجنون وليس بشجاع · والشجاعة العظمى انما هي الشجاعة الادبية التي تجرئنا في ساعة الخطر على عمل الحق وقضاء الواجب · وقد عرفها القائد الشهير الدوق اوف ولنتون حق المعرفة في احدى المعارك الطاحنة حين امر احد اركان حربهِ ان يحمل رسالة الى جهة في ساحة القتال كان الوصول اليها خطراً الى الغاية فلما تلقى الضابط الامر غشيت محياهُ صفرة الخوف والوجل لكنهُ اعمل المهماز في شاكلة الجواد وعدا بلا اقل توقف في سبيل الواجب · فقال الدوق لمن حولهُ : — «ذلكم فتى شجاع انهُ خاف كما رأيتم لكنهُ سار بلا تردد في قضاء ما امرتهُ بهِ»

وقد يزعم البعض ان هذه الفضيلة العالية كانت في العهد الماضي من لوازم النزال وابطال الحروب والغارات ورجال الفتح والتدويخ · اما في هذه الايام فلا يحتاج اليها سوى القادة والجنود المعدين لخوض المعارك واقتحام غمرات الوغى · ولله ما افسد هذا الزعم واوضح بطلانهُ بل ما اجهل من يظن ان للانسانية معنى من غير شجاعة تشير اليها وتدل عليها · وان زعماً كهذا لا يتولد الاَّ في مخيلة من كان جبأه وكلاً «اذا رأى غير شيء ظنهُ رجلاً» · واذا كان من اكبر شائنات المرء ان تراهُ جباناً رعديداً · فمن اجمل ما يزدان بهِ ان يكون بطلاً صنديداً

هذا ولا اريد بالشجاعة مجرد ثبات الرجال في ساحات القتال بل اعني ان في ساحات الاعمال الاعتيادية والواجبات اليومية ما يقتضي بسالة الابطال في حومة النزال · وكم من رجل نجدهُ في منصبهِ او تجارته او صناعته او زراعته او غيرها من الاعمال يذل لنا بأساً من دونهِ بأس البطل المقذف الثابت في ميدان الكفاح · وحينما يقضي على الانسان ان يصارع الفقر المدقع ويجالد خطوب نقد الاهل والاعزاء ويصادم قوة الديون ويساور رزايا متنوعة من مثل خؤون العزائم واخفاق المساعي وخيبة الآمال ويقاوم تجارب مختلفة الانواع والاشكال

ويظل مع ذلك كله عزيز النفس مرفوع الرأس رابط الجأش شديد البأس غير صاغر للنوائب ولا منثن عن عمل الحق وقضاء الواجب فهو وان لم تزن صدرهُ وسامات الشرف وشارات الجلال معدود من ابطال الرجال واشجع الابطال

ولكم من معركة خفية تشبُّ نارها يوميًّا هنا وهناك في هذه المدينة او تلك القرية في زاوية هذا الشارع او منعطف ذاك الزقاق وعلى هذا الدرج ووراء تلك النافذة فحاج فيها الى شجاعة تمكننا من عمل الحق وتعيننا على قضاء الواجب

ثالثًا الصبر مهد السعي والاجتهاد ومنشأ البسالة والاقدام . وهو في الانسان عنوان الرجولية الصحيحة . قال هوراتو الشاعر الروماني ما ترجمتهُ : —

ومن يك ذا عزم شديد وصاحب اس تقامة قلب لا يخاف مدسة الدهر
يسام الاذى والضيق من كل جانب ويبقى رصينًا رابط الجأش كالصخر
وتعبس فيهِ النائبات فينثني ال أسنة منها ضاحكاً باسم الثغر

وما اخاله غنى بهذه الصفات الا اخا الصبر والثبات وحين اذكر قول ابي الطيب المتنبي : —

« اطاعن خيلاً من نوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر ؟ »

اتمثلهُ معتزًّا بصبره الخارق وثباته الفائق وهازئًا بالجحافل والنمالق والاسنة والبوارق وعند ما اسمع منشداً يردد قول ابن دريد الازدي في مقصورته

« لا تحسبن يا دهر اني ضارع لنكبة تعرقني عرق المدى
مارست من نوهوث الافلاك من جوانب الجو عليهِ ما اشتكى »

اتصورهُ رجلاً صابراً على اللأواء نهاضًا ببلاء يلقى كوارث الدهر ثبتًا جلداً كأنهُ صخرة واد او طود من الاطواد

فخروجنا يوميًّا لمباشرة اعمالنا المتنوعة والبرد القارس نهرأ الجسوم والمطر يتدفق من جيوب السحب كما من افواه القرب . او في يوم اشتدت حرارة شمسهِ اتقاد النار وثار غبارهُ حتى سد منافس الافطار وكاد يعمي الابصار او حين تكون الاوجاع والآلام عابثة بالاسنان والاضراس وآخذة بخناق القلب والرأس وباجتهاد التلميذ في درسهِ والفلاح في حراثة ارضهِ وتعهد مزروعاتهِ والتاجر في تجارتهِ والعامل ايًّا كان في عملهِ . وبحسن الخلق وجودة الطبع وطول الاناة في معاشرة الاصدقاء والجيران ومعاملة جميع الناس — بهذا كلهِ نظهر صبر الرجال ونتذرع الى نجاح المساعي والاعمال وتحقيق الاماني والآمال

ومما يلابس الصبر ويتفرع عنهُ المواظبة على العمل وضبط النفس او ردعها وكبح جماح

ما فيها من اخلاق الشر والحماقة والغضب بحيث يتخلص المرء من خطر الاستعباد لعواطفه الذميمة . ومما يقتضيه الصبر ويستلزمهُ خلق الرجولية التعويل على النفس لان التواكل والاعتماد على الغير من شأن الاولاد ولا يعيبهم ذلك ما داموا قاصرين وفي حاجة الى من يتكلون عليهم ولكن من اكبر العيوب ان يعيش البالغ الراشد وهو في صحة جيدة عالة على غيره بلا سعي ولا اهتمام كما يفعل كثيرون من شبابنا في هذه الايام

رابعاً الطاعة — وهي من اهم ما يجب ان تتعودهُ ونوطن النفوس عليهِ منذ الصغر ويراد بها الخضوع لذوي السيادة وارباب السلطة مبتدأً من طاعة الوالدين والاوصياء والمعلمين . ولا شيء أضر بالشاب من ان يكون مطلق الحرية غير محكوم من وازع ولا رادع فيجنح الى التمرد والعصيان والازدراء بكل ذي سيادة وسلطان ويغوص في لجج المفاسد ويتبعث في المعاصي اتباعاً يقطع الامل من اصلاحهِ في مستقبل ايامهِ فتكون حياتهُ شقاء لنفسهِ ومرارة لبني جنسهِ . وشر ما تصنعهُ بولد انك تلقي حبلهُ على غاربهِ ليفعل ما يشاء فيزيغ عن سواء السبيل ويوغل في ترهات الاضاليل والاباطيل ويهوي في درك الشر والشقاء « هوي الدلو اسلمها الرشاء »

فهذه بعض الآلات التي تديرها قوة الارادة والعزم في معمل المشقة حيث ينشأ الرجال العصاميون بناة المعالي وجناة المجد والشرف . وكل منها مع ما يضاف اليها من الفضائل الاخرى كالصدق والامانة وطهارة الاخلاق حجر زاوية في بناء تقدمنا وارتقائنا وبدونها لا ترجى لهُ اقامة ولا ثبات

حمل النير في الصبا

قال ارميا النبي في مراثيهِ : « جيد للمرء ان يحمل النير في صباهُ » وقد اراني الاختبار ان ذلك ليس جيداً فقط بل هو من خير البركات التي يؤتاها الفتيان والفتيات

ان المعالي كالجنة محفوفة بالمشاق والمكاره والاخطار وليس لها لحسن الحظ طريق مفروش بالرياحين والازهار كما قال دي لافونتين . ثم ان ميلنا الفطري يتزع بنا الى مخالفة هذه القاعدة فنغبط الاغنياء وقد نحسد الاولاد الذين يولدون « وملاعق الذهب في افواههم » كما يقول الافرنج ويربون في مهد الترف والنعيم ويشبون على غضارة ورخاء وراحة وهناء وكل منهم

« خطرات النسيم تجرح خديهِ ولمس الحرير يدمي بنانه »

ونسي ان الذين يولدون هكذا قد يفسدهم الترفيه والتفنيق فيكونون اشبه بحانيث العقيق[1] لا يذكرون مع الرجال ولا يصلحون لعمل من الاعمال

نعم انهُ حسن ان يولد الشبان عظاميين ذوي نسب عريق صميم واصل مجيد كريم واغنياء اصحاب مال تليد قديم . ولكن احسن من هذا ان يتقوا خطر الوجود في مثل هذه الحال بتأصل آبائهم واقتفاء خطواتهم في المساعي والاعمال وزيادة ما ورثوهُ عنهم من الجاه والمال متمثلين بقول من قال

إنا وان احسابنا كرمتْ لسنا على الاحساب نتكلُ
نبني كما كانت اوائلنا تبني وتفعل مثلما فعلوا

وخير من هذا وذاك ان يولد الشاب فقيراً وضيعاً ويكون ذا نفس عصامية تسمو بهِ الى الرفعة والعلاء فيطلبهما على طريق السعي والاجتهاد والبسالة والاقدام والصبر والثبات والخضوع لذوي السيادات فينال الثروة التي استوجبها والشرف الذي استحقهُ . ويكون خليقاً ان يدعى انساناً لانهُ ابن المشقة

البنوك واستثمار الاموال

ذكرنا غير مرة ان مقدار الذهب في بنك انكلترا قليل في جنب ما في غيرهِ من البنوك الدولية الكبيرة كبنك فرنسا و بنك روسيا فان بنك فرنسا يحوي غالباً ما يساوي مئة واربعين مليوناً من الجنيهات و بنك روسيا ما يساوي مئة وعشرين مليوناً واما بنك انكلترا فقلما يزيد ما فيهِ على سبعة وثلاثين مليوناً مع ان اكثر الذهب يستخرج من املاك الانكليز فلا تقصر قلتهُ في بنكهم الاكبر وسائر بنوكهم الاَّ بانهم يرسلون ذهبهم الى اقطار المسكونة ويستثمرونهُ في الاعمال النافعة . فقد حقق بعضهم ان سكان مدينة لندن يشترون كل سنة من سندات الحكومات والمجالس ما قيمتهُ ثمانون مليوناً من الجنيهات ومن اسهم شركات المستعمرات وسنداتها ما قيمتهُ احد عشر مليوناً ومن اسهم سكك الحديد وسنداتها ما قيمتهُ ستون مليوناً ومن اسهم شركات التعدين وسنداتها ما قيمتهُ سبعة ملايين ومن اسهم الشركات التي تبحث عن المعادن وتصلح الاراضي وتزرعها ما قيمتهُ ١٨ مليوناً ومن اسهم

(١) رجال من اهل الخلاعة والمجون يضرب بهم المثل في الفتك